النقد والنقاد

في الصحف والمجلات

قلّ أن نجد، في الوقت الحاضر، ناقداً أو منقباً في الصحف والمجلات، سليم الحكم، متزن العقل، صحيح النفس، عاملاً على خدمة الأدب والفن، وانصاف الأدباء والقرّاء.

وأغلب النقاد والعارضين للكتب، يصدرون عن آراء ذاتية، ... أهوائهم ونزواتهم، ويجرون وراء شهرة كاذبة عابرة.

ويرجع هذا الى إيحاءات هذا العصر القلق المضطرب المذبذب، وما تتصف به ... من مجافاة للتعمق، وميل للمادة وحب للترسل والتسلق.

ولهذا فقد أغلب النقد الحاضر في الـ... عامة قيمته وأصبح وبالاً ونقمة على ... وضلالاً لكثير من القرّاء الذين يؤمنون بصوفية الحرف المطبوع.

وكم يؤثر في نفوسنا أن نجد برزخاً عميقاً فاصلاً بين نقد اليوم ونقد الأمس القريب الذي لم يمض عليه أكثر من خمسة عشر ... ويزيد، فقد كان ... نقداً ... فنياً، عاملاً على تنمية الانتاج الأدبي والفني.

وإذ نكتب هذه الكلمة، تطالعنا ... طائفة ... نقاد الأمس المتزنين، وما خلفوا من تراث نقدي مقدور، ... أبداً، نقدات الدكتور أبو شادي المتزنة الناضجة، ودفقات الدكتور ناجي الحماسية، وبحوث الأستاذ أحمد الشايب الرزينة المتأنية، وكتابات ابراهيم المصري الحصيفة، ونفثات البشبيشي الرصينة، ونتائف الدكتور بشر فارس، وفكرات الدكتور رمزي ... صريحة، وتعقيبات الصيرفي الهادئة ...، وخطرات صالح جودت الذكية، ونفحات محمود حسن اسماعيل، ... الوكيل، وغير هؤلاء من المتزنين الذين كانوا يمارسون الأدب ... والذين تجردت نقداتهم من المهاترة والتهجم على الأشخاص، واتسمت في الغالب بالعفة والكياسة، والضعف بالخلق والاعجاب.

ومن قبل هؤلاء سعدت البيئة الأدبية بنقاد خول أخيار أمثال الأستاذ خليل مطران، والدكتور هيكل والدكتور طه، وكذا المازني والعقاد عند تجردها من الانفعالات والغايات.

ومع هذا ، فلم تخلُ بيئة الأمس البعيد أو القريب ، من نقّاد متعالمين ، ونقّاد ذاتيين مسرفين في عاطفيتهم ، ونقّاد منحرفين تخلوا عن النصفة الفنية ، وقدحوا في كرامات الأدباء ، وحاولوا الوضع من انتاجهم .

وهذا النفر الأخير من النقّاد لم يؤثروا ذرة في إنتاج الأمس ، وان تركوا في نفوس الأدباء غصة على غصة وقد بادت لحسن الحظ نقداتهم المنحرفة ، كما يبيد الزبد في مهب الرياح

وظفرت البيئة الأدبية الماضية ، بتراث نقدي مشرف ، وشهدت عهداً تعاونياً مثمراً ، واستقبلت نقّاداً ممتازين ، عاونوا الانتاج الأدبي معاونة ايجابية ، وأنصفوا المؤلفين ، وقدّروا كرامة الأدباء الموهوبين .

وقد كنا نرتقب ، في الوقت الحاضر ، نقّاداً أكثر امتيازاً وأكثر وعياً للنقد السليم ، ولكن خاب الرجاء . وضاع الأمل المرتقب ، وعدنا الى النقدات العاطفية المصطنعة ، والتعقيبات [illegible] بة الثرثارة ، والطعنات الجارحة الآثمة ، وفتحت العيون في ذهول لتشهد ناقداً يتهجم على مواهب المفكرين ، ويقدح في أشخاصهم ، وناقداً يتعالم على التحصيل ، ويحمل لهم عصا الأستاذية ، وناقداً يلف نقده في وشاح [illegible] الغموض ويصور العمل الأدبي في صورة مشوهة ، وآخر يجمع الهنات من التآليف أو [illegible] لات قاصداً الى الزراية على الأدباء والسخر منهم ، والى جانب هؤلاء ، طراز آخر ، م [illegible] ب الثقافة الفنية ، والقوة الفكرية للنقد ، ولكنه ارتقى المنصة ، وأصدر على الموه [illegible] ين من شعراء العصر الحديث ، أحكاماً كلية جزافاً .

ومع هذا ، ولحسن الحظ ، فإن البيئة الأدبية الحاضرة لم تعدم بعض النوادر من النقّاد الممتازين من أمثال الدكتور محمد مندور ، الأستاذ أحمد الشايب ومحمد خلف الله ، وسيد قطب أحياناً ، تفاوتت قوة ملكتهم النقدية وقامت [illegible] على ذوق أدبي سليم أو على بعض أصول فنية لم تصل درجة التكامل .

ولم نظفر بعد بالناقد المثالي ذي الوعي الكامل ، وال[illegible] الراقي المتئد ، ذلك المرتقب الذي يحس بالحياة إحساساً كاملاً ، ويفهم الطبيعة الا[illegible] ، ويعرف خير ما أخرج من التآليف قديماً وحديثاً ، ويبذل دمه ، ونور عينيه ليصل الى جوهر الكتاب المراد نقده ، فيكشف عما فيه من حسنات ، ويلم إلماماً هيناً بالعيوب ، ويقابل بين الكتاب المنقود وباقي ما أخرج الكاتب ، وبهذا النقد يبرز [illegible] الخير في العمل الأدبي وهذا هو النقد المثالي الايجابي الذي عناه الناقد الشهير مدلتون موري في كتابه « مناحي الأدب » Aspects of Literature بقوله :

« الناقد الحق هو الذي يبرز الفن الحقيقي في العمل الأدبي ، ويبرز أجمل ما فيه ، ففي الشعر مثلاً يأتي الناقد بأنواع الشعر بأجمله ، وهذا هو الجهد النقدي المنشود » وهذا النقد الايجابي المنتج له أثره البالغ في الكاتب والقارئ على السواء .

حقّ ، اننا في حاجة ملحة الى الناقد النبيل المتخصص في فنون الأدب ، الى ناقد يعتمد الأسس الحديثة في نقد الشعر ، ويبرز روائعه ، وناقد يتعمق قراءة القصص القصيرة ، ويكشف عن بدائعها الفنية ، وناقد يحلل الروايات نثرية كانت أو مسرحية ، وناقد يهب نفسه لأدب السينما وفنها ، فمثل هذا التخصص يؤدي حتماً الى ترقية الانتاج الأدبي والنهوض به ورفع مستواها .

وقد يتساءل متسائل عن السبب في عدم وجود هذا الناقد المنشود ؟ واعتقادنا أن هذا راجع الى أن ناقد اليوم يكتفي بثقافة محدودة ، ولا يعمل على تنمية شخصيته وانضاجها ، وفضلاً عن ذلك ، فان التعليم في مدارسنا وكلياتنا ، وبخاصة في نواحي النقد ، لم يصل الى الدرجة المرجوة ، ففن الشعر ونقده لا يلقيان دراسة فنية عميقة ، وفن القصة ونقدها ، لا يحتلان المكانة الواجبة فيها ، وكذا الشأن في الفن المسرحي .

ويضاف الى هذه العوامل ، عامل آخر خفي ، ولكن أثره خطير ، هو أثر روح العصر ، ذلك الروح الفردي ، المجرد من حب التعاون ، المتسم بالتوزع والقلق ، والذبذبة والميل الى المادة ، وهذا الروح قد طبع كثيراً من نفثات الأقلام بطابعه .

وليس شك ، أن هذا العامل يمكن التغلب عليه ، بروح الناقد الفنان ، تلك الروح التي تستطيع التسامي على أية بيئة متكدرة ، إذا تحصنت بالمعرفة الواسعة ، والكياسة والتواضع والاتزان . وكم يؤلمنا أن نجد نقدات ذكية تضيع ولا تأتي بأية ثمرة بالنظر لحدة أسلوبها وتجردها من الكياسة ، أو بالنظر لتلك الحقائق فيها ، أو عدم تجاوب كاتبها مع العمل المنقود تجاوباً بريئاً .

وقد ألمعنا في مقال سابق عن أثر التحامل والحدة في نقد أحد أدبائنا الشبان ، لمفكر مصري جريء ، وما جلبت هاتان النازعتان من استياء صفوة المفكرين ونفورهم .

وها نحن أولاء ، نلقي ضوءاً على نقد كاتب شاب آخر لكتاب البلاغة العصرية واللغة العربية للاستاذ سلامة موسى ، انعدم فيه التجاوب ، وضاعت الأمانة الواجبة على الناقد في تبيان حقائق هذا الكتاب ، مع اقتران هذا النقد المنحرف بتطرفات شائهة .

وغايتنا من وراء هذا إعلاء مكانة النقد وتنقيته من الشوائب وجعله أداة منتجة عاملة في جانب الانتاج الأدبي .

وكتاب « البلاغة العصرية » الذي نحن بصدده ، هو صرخة ذكية من صرخات الأستاذ سلامة في هذه البيئة المتحجرة ، لجعل اللغة العربية كما هو الحال في كل لغة ، وسيلة لتأدية المعاني والآراء ، لا غاية من الغايات ، ودعوة نبيلة الى توسيع آفاق هذه اللغة ، وجعلها أداة طيعة لنقل آثار الحضارة الراهنة .

فلقد هال هذا المفكر المتحضر ، أن تضحى الأفكار من أجل العبارات المزوّقة المسجعة المزركشة ، وأن توأد الاصالة الفكرية بالكلمات المطلقة النسبية غير المحددة الدلالة ، وأن نتخلف عن ركب الحضارة بتركنا المعارف الحديثة ، واقتصارنا على بلاغة العبارات والزخارف البديعية تحطم بها رؤوس الناشئة .

ولقد قضى التواضع على مؤلف الكتاب أن يذكر في مقدمته أنه يطرح آراءه للمناقشة ؛ وأغلب هذه الآراء تؤيدها صفوة المفكرين والمثقفين ثقافة عالية ، كما سنوضح فيما بعد .

فكيف نوقش هذا الكتاب ؟ وماذا كان نصيب مؤلفه من أحد كتابنا الشبان في مجلة الرسالة الغراء ؟ وما هي تعليقاته ؟

لقد زعم الكاتب الشاب في كلمته ، أن الأستاذ سلامة موسى يهجم على اللغة العربية ! ويعيب أهلها ! ويدعو الى اللغة العامية ! وان آراءه في هذا الكتاب ككل الآراء التي في كتبه ، وان رجلاً هكذا اتجاهه لا يجوز أن يدخل متهماً مع الخالدين في المجمع اللغوي ، بل انه يستحق رياسة مجمع يطلق عليه « المجمع العامي » ويسمى باسمه !

ولا رد لنا على هذه الأقوال ، ولكنا ندع الكتاب يرد عليها ، ويكشف مبلغ افترائها على الرجل وعلى الحقيقة .

والنقاط الجوهرية في الكتاب تدور حول « ملكية العبارة » كما يقول البيانيون المحدثون ، وحول تبعية اللغة للتفكير ، وحول أثر اللغة وألفاظها في النواحي السيكولوجية والخلقية والفكرية ، وحول الاعتماد في الكتابة على العقل والمنطق دون العاطفة والانفعال ، وحول توسيع آفاق اللغة بثقافة العلوم والمعارف الحديثة ، وبإيجاد كلمات جديدة تتساوق مع العصر الجديد

فأما عن ملكية العبارة ، أي الدقة في استعمال الألفاظ ، وتوافقها مع المعاني والأفكار ، فقد أفاض في هذا البحث حديثاً في غير مكان . وأنه ليقول في ص ٩ :

« اللغة المثلى هي التي لا تتنفس كلماتها ولا تتسامح معانيها ، ولا تتشابه من بعيد أو قريب . ويقول في ص ١٨ و ١٩ : « إن الرقي في اللغة يعني الدقة وأن اللغة الحسنة تترك المترادفات لأنها ترى مترادفة متباينة يضيع بها الوقت » . و « الكاتب الذكي يجيل المترادفات من التوحيد

الى التنويع – أي يفرق بين الألفاظ المتقاربة المعنى مثل التفريق بين لفظة روح ونفس مثلاً أو بين كلمة الحكومة والدولة . وغير هذه من الألفاظ .

ويقول في ص ٩٣ مؤكداً ما أسلفناه قريباً — « يجب أن تكون الرسالة التعليمية لأية مدرسة مصرية ، هي تعليم اللغة العربية ، وأن تكون غاية هذا التعليم ، إيجاد الكلمات التي تحرك ذهننا بالتفكير الحسن ، وأن يكون هدف المعلم ، ليس العبارة الجميلة ، بل الكلمة الناجعة التي لا يمكن أن تقوم مقامها كلمة أخرى »

ويقول في ص ١٤٥ وهو ما يفسد ادعاء الكاتب في مجلة الرسالة ويدحض أقواله : « يجب أن نكبّر من شأن لغتنا ، وأن نوليها أعظم اهتمامنا ، لأنها وسيلة التفكير ، ولا يكون التفكير الحسن بلا لغة حسنة » .

فهذه الأمور وأمثالها كثيرة زخر بها كتاب « البلاغة العصرية » وهي آية ناطقة على أن المؤلف لم يهجم على العربية ، ولكنه يبغي الإكبار من شأنها وينادي بالاهتمام الفائق بالتعبير الدقيق المحدد المتعمد ، وهذه الفكرة ليست بدعاً وإنما هي ما يقول بها البيانيون ، وينشدها الأدباء الفنانون .

فلقد كان الكاتب الفرنسي الشهير — فلوبير — لا تغفو عيناه طوال ليله وهو في كرب ، لينال اللفظة الحقة mot juste كما كان يسميها ، وكذلك كان الكاتب الانجليزي الشهير استيفنسن يكابد مثل هذه التجربة .

وما لنا نذهب بعيداً مستشهدين بالغربيين وأمامنا كتاب « الأصول الفنية للأدب » « للأستاذ عبد الحميد حسن » وكيل دار العلوم يؤيد هذه الفكرة في ص ١٨٨ حيث يقول: « إن فقدان التوازن بين اللفظ والمعنى وعدم توافقهما ، نشأ عنه إسراف في سرد ألفاظ تعد من لغو القول ، أو نافلته ، فيصبح المعنى حائراً ، وقد تضيع معالمه وسط هذا الزحام اللفظي »

وينتقل مؤلف « البلاغة العصرية » الى فكرة لا تقل خطراً عن الفكرة السالفة وهي جعل اللغة وسيلة التفكير والاهتمام بالتفكير ، قبل الاهتمام بالعبارات الجميلة المزركشة ، وفي ذلك يقول في ص ٩٦ :

« يجب أن يعرف الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع ويجب مقاطعة الاقتباس في الانشاء في المدارس الابتدائية » ويكرر تأييد هذه الفكرة في ص ١٠٥ – اذ يقول :

« إننا في حاجة الى أن نجعل البلاغة فناً للتفكير الحسن السديد »

وهذه الفكرة بالغة الأهمية لأن في نطاقها تتقدم العقلية الشرقية ، وتلوذ الى الابتكار

والاصالة . وقد أثبت ذلك طائفة من رجال التربية وعلم النفس ، فيقول ر . ريل R. Reil في كتابه « فن التفكير العملي » :

«إن أعظم غاية للتعليم ، هو أن تعلّم الناس كيف يفكرون ، وهذا النوع من التعليم من أصعب الأمور » (١) وعلى مثل هذا الرأي جرى الاستاذ ميس Mies في كتابه « سيكولوجية الدراسة » Psychology of Study — فقال : إن الذي يُعلّم ، هو معرفة كيف تفكر » .

ويفيض المؤلف حديثاً ، إلى ما تقدم ، في أثر الالفاظ من الناحية السيكولوجية ، والاجتماعية والخلقية ، وهذا بحث علمي طريف ، غير مسبوق في لغتنا العربية ، ومما جاء في هذا البحث ، أن الكلمات تؤثر في نفوسنا ، وتجعلنا نسلك سلوكاً معيناً بما تغرسه في أذهاننا من القيم ، وان هذه الكلمات تبعث في أنفسنا انفعالات خاصة ، أو تحدث مقاييس ذهنية نعيش بها ونسلك في حياتنا على مقتضاها ص ٣٨ من الكتاب .

وفضلاً عن ذلك فان الكلمات تكسبنا كما يقول المؤلف اتجاهاً خلقيّاً ، بل تكسبنا اتجاهاً مزاجيّاً ، فان كثيراً مما نشمئز منه ، أو نطرب له ، أو ننشط إليه يعود الى الكلمات التي تعلمناها ، وانغرست في عواطفنا ص ٤٠ . وذكر مثالاً لهذه الحقيقة الاخيرة . كلمة « بومة » فإنها اسم شنيع لطائر يعد تحفة في الطيور ، ولذلك لا يستطيع شاعر عربي أن يستغل الطاقة الفنية في وصف هذا الطائر لشناعة إسمه ، مع أن إسمه اللطيف في الانجليزية والفرنسية ، جعل كثيراً من الشعراء الانجليز والفرنسيين يذكرونه في أشعارهم .

وقد فصّل هذه الفكرة في كثير من صفحات الكتاب فقال في ص ٨٧ :

« ان لكل كلمة ايحاءها الذي يندس في العقل الباطن ، ويكوّن لنا عادات في التفكير والاخلاق، ويجب لهذا السبب أن نحيط أبناءنا بالكلمات المثلى التي تبعث على التفكير الحسن » .

وفي ص ٩٧ ، أبان أثر الكلمات في الاخلاق ، فقال ، بأن هناك كلمات تبني الاخلاق ، فكلمة المروءة ، أو الفتوة ، أو البر ، كلمات تبني الاخلاق ، وأنها من التحف الغالية . ولو كانت الأمم العربية تكسب في كل مائة سنة كلمة جديدة ، لها هذه القوة في الخير ، لصار المجتمع العربي أسمى المجتمعات في التفكير العاطفي » .

ولم يقف مؤلف كتاب « البلاغة العصرية » عند هذه الفكرات بل ارتأى أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشيء بدلاً من مخاطبة

(1) The Art of Practical Thinking. by Reil.

العواطف ، وذلك لأن البلاغة في لغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل ، وهذا ضرر عظيم ص ٥٦

وهذه فكرة يمكن أن تقبل من كاتب اجتماعي أو رجل مشتغل بالعلوم ، همه الوحيد مسايرة العقل ، ومصاحبة الحقائق ، وقد يكون الدافع الى فكرته هو ازدحام البيئة الأدبية بالأدب العاطفي المصطنع أو الأدب العاطفي المسرف في عاطفيته ، ومثل هذا الأدب ممجوج ، ولا قيمة له ، ولكن لا نكران في أن هناك فنوناً من الأدب يعتمد العاطفة والانفعال ، كالشعر الغنائي والوجداني ، والقصص الرومانتيكية ، والأغنية ، وغيرها ، ومثل هذه النواحي تتخذ العاطفة أساساً لها ، وتستوحي العقل الباطن ، ويرى النافدون المحدثون ، وفلاسفة الجمال ، أن هذا الأدب هو الأدب الفني ، ويمكن استفتاء « هربرت ريد » وغيره من النقاد المحدثين في هذه الناحية ، التي تتطلب بحثاً منزلاً

* * *

والذي يتعمق كتاب « البلاغة العصرية » يحس احساساً كاملاً ، بأن مؤلفه ، قد تملكته فكرة ثابتة نبيلة ، هي أنه لا تقدم لبيئة المصرية ، إلا بالرواد الى المتقدم . وتزويد الناس بأنواع الثقافات المتنوعة ، والعلوم الحديثة ، لتسير البلاد في ركب الحضارة . ولهذا نراه يحمل حملة شعواء على الكتاب الذين يتركون آثار الحضارة الراهنة ، ويعيشون على تراث الموتى ، فيترجمون كما يقول ، رجال الماضي ، ويتركون رجال الحاضر ويولون اهتمامهم أدب القدامى ، وينأون عن التأليف في مشكلاتنا العصرية ص ١١ ويكتفون باجترار عواطف القدامى الفردية ، دون اهتمام بالفكرات والعواطف الاجتماعية والأدب الشعبي .

وقد زخر الكتاب بشواهد وفيرة لتأييد هذه الفكرة ، فيقول : « إن لغتنا خرساء في نحو مائة علم وفن ، ولهذا السبب نحن جهلاء في هذه العلوم والفنون — ويقول في ص ١٢٠ — « الكلاسية في مصر ، ليست لغوية أدبية فقط ، بل هي اجتماعية تزاجية ذهنية ، فدعاتها مثلاً يهتمون كثيراً جداً في التأليف عن الخوارج في أيام علي بن أبي طالب ، ويهملون التأليف عن الخوارج على الديمقراطية .

ويتجلى من هذا ، أن مؤلف كتاب « البلاغة العصرية » يدعو الى أدب حي ، أدب عصري يتصل بالحياة ، أو ينبع منها ، ويريد أدباء لهم آثار في الحياة الاجتماعية ، أدباء يثيرون ضمائر معاصريهم من أمثال ديكنز وشيكوف وأبسن و ه . ج . ولز وبرنارد شو ومن إليهم .

ومن وسائل تجديد الأدب ، تجديد اللغة وجعلها عصرية ، وذلك بتبسيطها (ص ٨٣)

وترك الكلمات الحقيرة ذات الإيحاء السيء ، واختيار الكلمات التي تثار الإيحاءات الموقظة المنشطة أو كما يقول في ص ١٠٠ – كلمات يحس الفرد نحوها ، بل يتأثر بكيميائها ، وفضلاً عن ذلك ابتكار كلمات جديدة تساير تطور المجتمع المتحضر ، وتطعيم تعبيراتنا بمعاني العلم ، ثم استعارة الكلمات العالمية أو الكوكبية كما يسميها ، مثل التليفون والراديو والتلسكوب ، والفلم ، والتلغراف وما إليها .

وهو في هذه الآراء يجاري سنة التطور في كل لغة من اللغات الحية ، فاللغة الإنجليزية كما يقول ...... لا تقل كلماتها عن ٤٠٠ ألف كلمة وهي تستمر في كل عام ، بل في كل يوم ، كلمات جديدة[1] وذلك لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية المتجددة ، تتطلب كلمات جديدة تعبر عن المخترعات والكشوف العلمية الحديثة .

***

هذه هي أهم الفكرات التي دار حولها كتاب « البلاغة العصرية » وهي فكرات تستأهل التمحيص ، بل التمثل ، وهناك فكرات عارضة ذكرها المؤلف دون أي تعليق ، مثل فكرته في إحياء الأدب الشعبي باصطناع اللغة العامية ، ص ٨٣ ولكنه لم يذكر شيئاً عن كيفية اصطناع هذه اللغة ؟ وفي أي فن من فنون الأدب ؟ والمفهوم أنه ينشد لنا لغة عربية سهلة عصرية . وهو محور كتابه ، وهو في هذا الكتاب ، وفي كتبه العدة التي ازدانت بها المكتبة العربية لم يستعمل كلمة عامية واحدة ، بل أنه يتوخى الكلمة معبرة ، والعبارة العربية الصحيحة ، وأسلوبه يبز كثيراً من أساليب كبار أدبائنا .

ومما تقدم من عرض مفصل لكتاب « البلاغة العصرية » يتضح أن ما جاء في أقوال كاتب مجلة الرسالة من أن الكتاب يدعو إلى التهجم على اللغة العربية ، ويعيب أدبها ، ويدعو إلى العامية ، لا يقوم على أي أساس من الصدق والحق ، ونخشى أن نقول إنه تشويه متعمد ، قصد به التشهير وإذاعة الآراء الباطلة ، وهذا ما نشجبه كل الشجب ، ونرجو أن يربأ كتابنا الواعون بأنفسهم عن الانزلاق في الحكم على كتاب أو أديب ، دون قراءة فاحصة ، وتجاوب مع الكاتب ، وتجرد عن الهوى .

هدانا الحق والتعاون سبيل النقد العف النزيه .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

---

(1) English Language & Literature (The New Educational Library)